قضية اللغة العربية -١-

يسّروا النحو والكتابة

بقلم الدكتور طه حسين

سيداتي وسادتي

اريد ان اتحدث اليكم في موضوع عسى ان يكون ثقيلا ، واعتذر اليكم من ثقله، فالحق ثقيل دائماً ، لا يخف الا على أولى العزم من الناس ، والعهد بكم انكم من اولى العزم، لأنكم من العرب الذين يؤثرون الجد على الهزل ، ويفضلون الصراحة على المداراة والمرابة وبيني وبين الذين سينكرون ما اقول ، ما قاله ابو العلاء :

خذي رأيي وحسبك ذاك مني
على ما فيّ من عوج وامت
وماذا يبتغي الجلساء مني
ارادوا منطقي واردت صمتي
ويوجد بيننا امد قصيّ
فأموا سمتهم وأممت سمتي

والموضوع ثقيل لانه يتصل باللغة العربية الفصحى ، وبتعليم الشعب، فما اكثر ما نتحدث عن هذه اللغة العربية الفصحى ، وما اكثر ما نعلن اعتزازنا بها ، واعتدادنا بتراثها وحرصنا عليها وعلى تراثها العظيم ، ويقيننا انها هي اساس وحدتنا وهي العروة التي تجمع الشعوب العربية على اختلاف وتباعد اوطانها ، والعروة التي لا انفصام لها . نتحدث عن هذا فنكثر الحديث ، ونقول في هذا فنطيل القول ، ونملأ به افواهنا ، وتطمئن اليه قلوبنا ، وتثور له نفوسنا . واذا نحن نفيض ايماناً وثقة واملا ويقيناً ، فاذا فرغنا من هذا كله ، وثبنا الى نفوسنا او ثابت نفوسنا الينا ، وهدأت عنا الحماسة ، اكتفينا بما قلنا ، وبما سمعنا ، وبما صفقنا وبما صحنا ، ثم لم نكد نصنع شيئاً .

ولست انكر ان علماء اللغة في البلاد العربية على اختلافها يبذلون جهوداً عنيفة ، وينفقون من اوقاتهم ومن نشاطهم اكثر مما يطيقون لحماية اللغة وصيانتها ، وحراستها والمحافظة عليها من كل عبث او كل شر يمكن ان يصيبها ، ولكن السؤال الخطير الذي القيه الآن ، واريد ان يلقيه كل واحد من حضراتكم عن ثقة : لمن نحفظ هذه اللغة ولمن نصونها ، ولمن نريد ان نخلدها ؟ ولمن ننفق كل ما ننفق من جهد ووقت ومال في سبيل هذا كله ؟ انفعل هذا كله لانفسنا لنستأثر بالعلم ، وليقال اننا علماء ، حفاظ ، نتصرف في اللغة العربية بعد ان طوعناها بقدرتنا ، ونستطيع ان نصرفها كما نحب ونهوى ؟ أم نحن نفعل ذلك لتكون هذه اللغة ملكاً للشعوب كلها ، لا لطبقة معينة منها هي طبقة العلماء الائمة ، الحفاظ ، ولكن لجميع طبقات الشعوب العربية، الطبقات الممتازة او الراقية ، والطبقات الوسطى والطبقات الفقيرة ،

وهذا السؤال هو الذي اريد ان ادير الحديث حوله

اما ان فينا علماء ، فهذا ليس فيه شك ويكفي ان اكون في دمشق وان القى الاعلام من اعضاء المجمع العلمي في دمشق، وان القى هذه الطائفة الممتازة من المثقفين الشاميين لاقنع بان اللغة العربية حية قوية ، وان لها حفاظاً ، وان لها انصاراً يذودون عنها ويحمونها ، يذودون عنها الشر ، والعبث والفساد ، وما اشك ان في البلاد العربية الاخرى شيئاً يشبه ما في الشام كثيراً او قليلا ، ولكن الشيء الذي لاشك فيه هو ان هذه اللغة العربية التي يبذل في سبيلها كل هذه الوقت ، هذه اللغة لم تصل بعد الى الشعوب ، او لا يكاد يصل منها الى الشعوب الا اصداء لا تغني عنها شيئاً .

وليس ادل على هذا من اننا اذا استقصينا امر اللغة العربية في الاقطار العربية الاخرى ، فسنرى ان اكثر الذين يقرأون ويكتبون لا يستطيعون ان يقيموا السنتهم بهذه اللغة الفصحى ، وسنرى شراً من هذا : سنرى كثيراً من الشباب في غير قطر

عدد « المسرح » الممتاز

في منتصف تشرين الأول الماضي (اكتوبر) انتهت المدة الممنوحة للاشتراك في مسابقة « المسرحية » التي اعلنت عنها « الآداب » في اعدادها السابقة . وقد تلقت المجلة عدداً قليلاً من المسرحيات تدرسها الآن لجنة المسرحية التي تألفت للنظر في هذه المسابقة

وستعلن النتائج في عدد المسرح الممتاز الذي يصدر في اواخر كانون الاول (ديسمبر) القادم ، كما ستنشر فيه المسرحيات الفائزة . وسيكون هذا العدد حافلا بالدراسات والبحوث والمسرحيات ، بحيث يعتبر وثيقة هامة عن المسرح الحديث في البلاد العربية وفي الغرب .

من الاقطار العربية يفكرون ويعلنون ان هذه اللغة اصبحت عاجزة عن ان تساير الحياة الحديثة ، ويفكرون ويعلنون ان هذه اللغة اصبحت عاجزة عن ان تعرب عن ذات النفوس في هذا العصر الحديث ، ويفكرون ويعلنون ان هذه اللغة اصبحت لا تصلح لتكون لغة الكتابة ، ولغة الادب في بعض البيئات ، وما اكثر الذين اخذوا ينحرفون عن هذه اللغة الى اللغة العامية التي يتحدثها الناس في الشوارع ، وفي القرى ، وفي اعماق الريف ، يكتبون بهذه اللغة ، ويرون الكتابة بها ايسر من الكتابة بهذه اللغة العاميةواطوع لهم ، واقدر على تصوير عواطفهم ، واهوائهم وميولهم وما يجول في رؤوسهم من الخواطر والمعاني من اللغة العربية الفصحى .

وهم يعللون ذلك باسباب كثيرة اهمها انهم لا يستطيعون ان يتعلموا اللغة العربية لانها عسيرة ، ولانها مملة . ولأن التلميذ اذا ذهب الى المدرسة واستمع الى دروس الاستاذ في اللغة العربية . في النحو او في الصرف او في البيان لم يستفد من استاذه الا شيئاً واحداً وهو النفور من الاستاذ والنفور من اللغة العربية ، والانصراف الى اي شيء آخر يلهيه ويريحه من هذا العناء الثقيل . ولا تظنوا انني ابالغ ، او اتكثر . فهذه حقيقة واقعة لا ينكرها الا المكابرون ، ولا تقولوا ان المدارس قد اخرجت طائفة من الكتاب والادباء الممتازين ، فهؤلاء هم الشذوذ الذي يثبت القاعدة او الاستثناء الذي يحقق القاعدة كما يقال ، ولكن التلاميذ في المدارس ، لا يبغضون شيئاً كما يبغضون دروس اللغة العربية . وهم مع ذلك اذا استمعوا لمحاضرة عن اللغة العربية ومجدها القديم وتراثها الخالد العظيم . ثاروا حماسة وامتلأوا نشاطاً ، وايماناً ، واعجاباً بهذه اللغة . ولكنهم حين تسقط عنهم الحماسة يعودون الى تذكر الاستاذ وكلامه الثقيل .. الذي كان يمليه عليهم . او يلقيه عليهم في المدرسة ، وهذه الاسئلة الشاقة التي كان يمتحنهم بها بين حين وحين .

والامر اشد من هذا كله خطورة . فنحن في هذا العصر الحديث الذي نعيش فيه قد آمنا بان التعليم حق للشعب كله ، منذ السن المبكرة . الى ان يبلغ الفتى او تبلغ الفتاة الرشد ، واذن فنحن لا نبيح التعليم للقلة التي وقفت نفسها على ان تتعلم ، واتاحت لها الحياة ان تفرغ للتعليم ، وان تنفق فيه شيئاً من الجهد والوقت والمال . وانما نفرض هذا التعليم على الاغنياء والفقراء ، وعلى الاقوياء والضعفاء وعلى القادرين

والعاجزين ؟ نفرض هذا التعليم على الشعب كله ، ونعاقب الذين يقصرون في اداء هذا الواجب ، وهو تعليم انفسهم اولا وتعليم ابنائهم وبنا ذلك . ثم بعد

قوانينا تعاقب الذين يقصرون في تعليم ابنائهم وبناتهم ، ومعنى هذا اننا نفرض التعليم على هذه الملايين الكثيرة التي تتألف منها الاجيال في هذه البلاد العربية .

واذا فرضنا التعليم على كل هذه الملايين فيجب ان نبتغي الى هذا التعليم وسائله الصحيحة التي تنتهي به الينا حقاً ، ويجب أن لا نكلف الكثرة الضخمة التي نعلمها ، هذه الكثرة الضخمة من البنات والبنين ، ما نكلف به القلة التي يتاح لها الوقت والجهد والمال . واذن فلا بد من ان يكون التعليم يسيراً ، ومن ان يكون قريباً ، ومن ان يكون سائغاً ، لانجد فيه هذه الكثرة مشقة ولا عنتاً ، ولا تحتاج فيه الى هذا العناء الثقيل الذي يفرض على ابنائنا فرضاً .

واخرى ليست لاقل من هذه خطورة ، وهي اننا نعيش الآن في القرن العشرين ، اي في العصر الذي تغير فيه التاريخ ، وتغيرت فيه الحضارة المادية تغيراً تاماً ، وتغيرت فيه الثقافة العقلية تغيراً يوشك ان يكون تاماً ايضاً ، وتغير فيه العقل نفسه بحكم ما طرأ على الحضارة والثقافة من تغيير ، وما زلنا نعلم اللغة العربية في مدارسنا ومعاهدنا كما كان القدماء يعلمونها في معاهدهم ومدارسهم منذ اكثر من الف عام ، وقد نستطيع ان نطلب الى القلة القليلة جداً ان تحتمل هذا العناء ، وان تتكلف هذا الجهد ، وان تخرج من القرن العشرين او التاسع عشر للميلاد ، لتتعلم النحو ، والصرف ، واللغة كما كان القدماء يتعلمونها . ولكنك لا تستطيع بحال من الاحوال ان تطلب الى هذه الملايين الكثيرة ان تبذل هذا الجهد وتحتمل هذا العناء وتخرج من حياتها التي تحياها بالمشقة ، والكد ، والعناء — لتعود الى حياة اخرى لعلها لا تعرف من امرها شيئاً . فعند ما تريدون ان تعلموا هؤلاء الاطفال في المدرسة الابتدائية او هؤلاء الشباب في المدارس الثانوية ، عند ما تريدون ان تعلموهم النحو ، تعلمونهم النحو كما كان المبرد واستاذه المازني وتلاميذهما المختلفون يعلمون في مساجد البصرة ، وكما كان الكسائي والفراء يعلمان في مساجد الكوفة ، او في مساجد بغداد ، والفرق بعيد بين المدرسة الابتدائية التي ننشئها في اعماق القرى وبين مسجد البصرة ، او مسجد الكوفة او مسجد بغداد ، والفرق هائل جداً بين القرن العشرين وبين القرن الثامن او التاسع حين كان يعيش هؤلاء العلماء .

كان القدماء يعيشون عيشة خاصة ويتأثرون من ناحية بالبداوة العربية الاولى ، ومن ناحية اخرى بالفلسفة اليونانية الطارئة ، ومن ناحية ثالثة بالحضارة الفارسية المادية التي احاطت بهم وشملتهم شمولا . اما نحن فقد صرفنا عن البداوة العربية الاولى ، واغرقتنا الحضارة الحديثة الى آذاننا ، وقد انسينا فلسفة ارسطاطاليس وغيره من قدماء اليونان ، واصبحت هذه الفلسفة لا يعرفها الا الاقلون من امثال الصديق الدكتور منصور فهمي والدكتور جميل صليبا ، واصبحت الحضارة الفارسية شيئاً يعني الفرس حين يدرسون تاريخهم ، أما حضارتنا الآن فهي الحضارة الحديثة ونحن نعنى بحضارتنا القديمة لنستبقي منها ما يصلنا بالقديم حتى لاتفنى شخصيتنا وحتى لا نفقد عروبتنا ، وحتى يظل الاتصال قوياً بيننا وبين ماضينا المجيد ، فاذا اردتم ان تعلموا النحو لهؤلاء التلاميذ المساكين فكيف تريدونهم على ان يفهموا ان قولك — قرئ الكتاب — فعل مبني للمجهول ، والكتاب نائب عن الفاعل لأن الفاعل قد حذف لغرض من الاغراض التي تذكر في علم المعاني ، وعلم النحو ، وانيب عنه المفعول به . فكيف تريد التلميذ المصري او الشامي او العراقي الذي لم تتجاوز سنه الثانية عشرة ان يفهم هذا الكلام ؟ ما هذا الفاعل الذي حذف ؟ وما هذا المفعول الذي انيب عنه ؟ ما هذا المجهول الذي بني له الفعل ؟ وعندما تريد ان تفهمه قول الله تعالى (وان احد من المشركين استجارك ، فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم ابلغه مأمنه) قلت له : — ان احد — في قوله — وان احد من المشركين — فاعل لفعل محذوف تقديره استجارك وان تقدير الآية — وان استجارك احد من المشركين استجارك فيسألك التلميذ واين توجد استجارك الاولى هذه ومن اين نأتي بها ؟ وفي وجود هذا الفعل مرتين ، ولِمَ لا نكتفي بهذا الفعل الذي اكتفى به القرآن الكريم ، كيف تجيبون ؟ . أما أنا فقد سألت احد الشيوخ عن اعراب هذه الاية فأعربها كما تسمعون ، فقلت له يا سيدي : اتزيد في كتاب الله ؟

وعلة هذا ان النحاة القدماء قرروا في قواعدهم ان حرف (أن) لا يدخل الا على فعل ، ولما جاء في القرآن وفي كلام العرب (ان) وبعدها اسم لم يخضعوا لما جاء في القرآن ولم

يخضعوا لما جاء في كلام العرب نثراً وشعراً ، وانما ارادوا ان يخضعوا القرآن للقاعدة التي قرروها ، وقد طوعت لهم فلسفتهم هذا النحو من التصرف واستطاعوا ان يحتملوه ، واستطاعوا ان ينهضوا باثقاله ، لان عقولهم في تلك الاوقات ، في تلك السنين ، كانت عقولا فلسفية متأثرة (بالميتافيزيك) أو بالميتافيسقة كما يقولون التي تركها ارسطاطاليس ، وورثها العرب ، فكانوا يستطيعون ان يفهموا مثل هذا الكلام ، ولكن شبابنا في هذه الايام يعيش في عصر لا يكاد يحفل بالميتافيزيك وما بعد الطبيعة ، ويعيش في عصر لا يكاد يعرف ارسطاط ليس منه الا المختصون ، فاذا قلت لهم بالفعل ، وحدثتهم عن الفعل المحذوف الذي يفسره ما بعده ، وذكرت لهم هذا الفعل حاروا في امره حيرة بعيدة ، واذا اردتم أن تعلموا التلميذ — فأما ثمود فهديناهم — فأفهمتوه ان ثمود ليست مفعولا لهديناهم . وانما هي مفعول لفعل محذوف تقديره هدينا ، ثم قلتم معنى الآية او تقدير الآية — فأما ثمود فهديناهم — لم يستطع التلميذ الا ان يضحك اولا ، ويسخر ثانياً ، وان ينصرف عن الاستاذ ودرسه بعد ذلك ، والحمد لله على انه لا ينصرف عن الاسلام ولا عن القرآن لان الأسلام اقوى والقرآن اقوى من ان يؤثر فيهما مثل هذا العبث. او اذا قلت لطالب للتلميذ نحن المصريين نفعل كذا ، او نحن السوريين نفعل كذا ، وطلبت اليه ان يفسر هذا او يعربه ، الهمته ان هناك فعلا محذوفاً تقديره اخص نحن اخص السوريين نفعل كذا ما موقع اخص هذه ؟ لا معنى لها مطلقاً الا اننا وجدنا هذه الكلمة منصوبة ووجدنا هذا التعبير يدل على التخصيص ، فقدرنا هذا الفعل . وقدرنا هذا العقل ولنا ان نقدر ما نشاء ، ولكن التلاميذ لهم ايضاً عقول صغيرة ساذجة . لا ينبغي ان نكلفها مالا تطيق . واذا قلت للتلميذ — اياك والكسل — وطلبت اليه اعراب هذه الكلمة ، اخترعت له فعلا مقدراً لا ادري ، ولا يدري هو أين يكون ولا من أين جاء — احذرك — ونظراً لانك حذفت الفعل فقد اضطر الى ان تستعمل الضمير المنفصل مكان الضمير المتصل فلم تقل كالنار وانما قلت — اياك والنار —

كل هذا كلام انا شخصياً احبه أشد الحب ، واؤكد لكم ان الحر هو أحب علوم اللغة العربية الي واؤكد لكم انني اجد لذة لا تعدلها لذة حين اجلس الى الصديق ابراهيم مصطفى ونتذاكر باباً من ابواب النحو ، ونحاول اعراب آية من آيات القران على قواعد النحويين ، او اعراب بيت من ابيات الشعر على قواعد النحويين ، ولا انسى اني تذاكرت معه غير مرة في اعراب الاية الكريمة : — ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما احملكم عليه ، تولوا واعينهم تفيض من الدمع حزناً أن يجدوا ما ينفقون — كيف يكون اعراب هذه الآية ، ولان هناك : — اذا ما أتوك لتحملهم — قلت : — ثم تولوا — فعلان و — اذا — محتاجة الى جواب .. اين يكون الجواب بين هذين الفعلين ، بين — قلت لا اجد — أو بين — تولوا — ويكفي ان تنظروا الى اعراب القرآن لابن حيان لتروا ما يقال هناك ، ولكن كل هذا العمل ما يعمل به التلاميذ في المدارس صغار او كبار ؟

هذا فصل ، وفصل آخر ليس اهون منه ، الاصل ان الناس يكتبون ليقرأوا ، ويقرأون ليفهموا ، ونحن نكتب لنقرأ ، ولكننا لا نقرأ لنفهم ، وانما نفهم اولا لنقرأ بعد ذلك ، واذا كان هذا جائزاً بالقياس الى الممتازين النابهين الفذين ، فهذه الملايين ما الذي تطلبونه اليها ؟ كيف تطلبون من هذه الكثرة من الاطفال الصغار ، في هذه السن المبكرة ان يفهموا الكتب التي تعطي اليهم بالمدارس ليقرأوها كما ينبغي ان تقرأ ، ويجب عليهم ان يفهموا قبل ان يقرأوها ، او ان يقرأوها خطأ فيلقون من اساتذتهم ومعلميهم سخطاً ، فلا بد اذن من ان نختار بين اثنتين : اما ان نريد المحافظة على اللغة العربية في مجامعنا العلمية على اختلافها فنذود عنها كل شر ، ونحميها من كل بأس ، ونحيي تراثها القديم ، ونجتهد في أن نضيف اليه كل جديد ممكن ، ينفع ولا يضر . — اما أن نكون نفعل هذا كله لانفسنا واشباهنا من المتخصصين ولا نحفل بالشعب ولا بتعليم الشعب ، واذن فنحن لا نصنع اكثر مما يصنع المتخصصون في اللغة اليونانية القديمة ، وفي اللغة اللاتينية القديمة ، اي ما يصنعه المتخصصون في اللغات الميتة.

اتريدون ان تكون اللغة العربية احدى هذه اللغات الميتة التي يفرغ لها المتخصصون ولا يحسنها غيرهم ؟

هذه واحدة. والثانية ان نكون انما نفعل هذا كله لتكون اللغة العربية لغة حية حقاً كما تحيا اللغة الالمانية والايطالية والفرنسية والانكليزية والاسبانية وغيرها من اللغات الحية التي يتكلمها الناس ويكتبون بها، ويفهمونها حين يقرأونها

او يقرأونها ليفهموها فاذا قرأوها فهموها في غير مشقة ولا عسر ، واذا تعلموها فلا يجدون فيها جهداً ، ولامشقة ولا عناء ، الا ما يجده التلميذ في حياته العادية حين يتعلم اي شيء من هذه الاشياء التي يتعلمها في صباه .

ولم اذهب بعيداً ؟ .. انظروا الى تلاميذنا في المدارس الثانوية ! اننا نعلمهم اللغة العربية ، ونعلمهم لغة اجنبية او لغتين اجنبيتين .. في اي اللغتين يتثقف هؤلاء التلاميذ ، وبأي اللغتين يسرع هؤلاء التلاميذ الى النطق والفهم والحديث .. اتظنون انهم يتثقفون باللغة العربية .. اتظنون انهم يسرعون الى التحدث بالعربية الفصحى ، ويسرعون الى قراءتها او فهمها ام أن الواقع شيء آخر ؟. اما انا فقد جربت كثيراً ، والذي اعرفه من التجربة ان تلاميذنا يتعلمون اللغة الانكليزية والفرنسية اسرع مما يتعلمون اللغة العربية ، لولا ان عواطفهم تفرض عليهم شيئاً من التحفظ وتفرض عليهم شيئاً من الجهد.

اؤكد لكم ايها السادة ان كل هذا الذي عرضته عليكم حتى الآن انما يصور خطراً محققاً اشرت اليه في افتتاح مؤتمر المجامع العلمية منذ يومين ، واضيف اليه ان هناك كتاباً كبار يقرأون في الشرق العربي كله ، ويطالب بعضهم الآن بالغاء الاعراب والغاء قواعد النحو .. انا أطالب بتيسير قواعد النحو وتيسير الكتابة العربية لتشيع اللغة العربية ، وتصبح لغة الشعوب حقاً ولغة حية حقاً ، ولكن من الناس من كتبوا في هذه الايام القريبة يطلبون الغاء قواعد الاعراب وتسكين اواخر الكلام لا لشيء الا لانهم لم يتعلموا اللغة العربية حين كانوا تلاميذ في المدارس ، لا لشيء الا لأن النحو القديم والكتابة الموروثة والاساتذة الذين يعلمون النحو القديم والكتابة الموروثة كل اولئك عجزوا عن ان يحببوا هذه اللغة الى الكاتب الكبير ويبغضوا اليه العربية الفصحى ، وغرسوا في نفسه هذا البغض ، واصبح الآن لا يكره شيئاً كما يكره التكلم بهذه اللغة ، ولا يتحرج ان يطالب بالغاء قواعد الاعراب وتسكين آخر الكلمات ، وجعل اللغة العربية الفصحى كأي لهجة من اللهجات العامية .

انتم كذلك بين اثنتين : اما ان تريدوا وحدة الشعوب العربية حقاً وتكونوا مؤمنين بهذه الوحدة حراصاً عليها مستعدين للجهاد في سبيلها بالحياة والنفوس ، والأموال والمنافع ، مهما تكن ، واذن فلابد من ان تجعلوا لغتكم العربية التي تكون وحدتكم ، لغة الشعوب لا لغة الخاصة .

واما ان يكون حديثكم عن هذه الوحدة كلاماً لا اكثر ، واعوذ بالله واعيذكم من ذلك . واذن فدعوا اللغة العربية تموت ودعوا اللغات العامية تصبح لغة الكتابة وانظروا بعد ذلك اذا اراد السوري ان يقرأ كتاب مصري عليه ان يترجمه الى لهجته السورية ويضطر العراقي اذا اضطر ان يقرأ لسوري ان يترجمه للهجة العراقية .

اختاروا فليس لكم بد من الاختيار ، ان نحن مضينا فيما نحن عليه وابينا ان ننصرف عن النحو والكتابة وان نتيح للشباب والصبية ان يقرأوا ليفهموا لا ان يفهموا ليقرأوا ، ان ابينا ان نمضي كما كان النحو وكما كانت الكتابة ، لابد ان تنشأ عن هذه اللغة العربية الفصحى القديمة لغات مختلفة كما نشأت الفرنسية والايطالية والاسبانية والبرتغالية عن اللغة اللاتينية القديمة .

لقد اتت اللاتينية وخلفها ابناؤها وبناتها ، فهل تريدون ان تموت اللغة العربية وان تخلفها بناتها التي نشأت بالفعل في الأقطار العربية المختلفة .. هذه هي المسألة ، اختيار ، وانا اعلم انه ليس اشق على الانسان من الاختيار . فنحن نحب القديم ولا نستطيع التفريط فيه الا بعد مشقة ، وجهد وعناء ، وبعد ان تتمزق قلوبنا حسرة ، ولكن لابد مما ليس منه بد .

وبعد : لا ادعو ان نهجر القديم مطلقاً وعسى ان اكون أشد الناس محافظة على قديمنا العربي ، ولا سيما في الادب واللغة ، ولكن لم لا يكون النحو القديم ، والكتابة القديمة ، والبلاغة القديمة ، وكل هذه العلوم العربية التي انشئت في عصر غير هذا العصر الذي نعيش فيه .. لم لا يكون هذا كله متطوراً كما تطورت اللغة تحفظ قديمه لدرس المتخصصين في الجامعات ، وفي المعاهد ، ونخصص للملايين البائسة من الصبية والشباب ان يتعلموا تعلماً قريباً سهلا عسى ان يتخرج من بينهم من يضيف الى ثروة هذا القديم ، ويحسنه اكثر مما نحسنه نحن ، ويحيي هذا التراث القديم اكثر مما نحييه نحن .

انا اعرف ان هذا كله لا يرضي كثيراً من الناس لا في دمشق وحدها بل في مصر وغيرها من البلاد العربية ، ولكني لا احب ان أكذب العرب ، وقد قيل ان الرائد لا يكذب قومه ، ولا احب ان اكون كهؤلاء الذين يقولون ان أمة محمد بخير ، ولا أريد ان أكون كهؤلاء الذين يطمئنون في

التتمة على الصفحة ٧٣ –

يسروا النحو والكتابة

– تتمة المنشور على الصفحة ٦ –

المكان القلق ، انما احب واحب للمواطنين من العرب ان يكونوا ايقاظاً لا نياماً وان لا يؤخذوا على غرة . وان لا ينظروا ذات يوم فاذا هم يدرسون ويجتهدون ويجدون ويكدون لأنفسهم لا للشعوب ، لابد اذن ان ننظر في هذا كله وان ننظر فيه نظرة الشجعان الذين يواجهون الحقائق ولا يستخفون منها ، ونظرة الناصحين الذين لا يريدون ان يستأثروا بالعلم دون العامة ودون الشعب ، وحسب الدنيا شقاء ان يكون المستأثرون بالمال والمستأثرون بالحياة المادية ، وشر الاستئثار هو الاستئثار بما خلقه الله ليكون شائعاً بين الناس جميعاً وهو العلم والمعرفة والثقافة ، لا ينبغي لعلماء اللغة العربية ان يؤثروا انفسهم بالعلم العربي ، بل يجب عليهم ان يشيعوه ، ولا ينبغي عليهم ان يظنوا انهم حين ينشرون كتاباً من كتب القدماء يشيعون حقاً . فالكتاب لا يشاع الا بين الذين يستطيعون ان يفهموه ، ويتصرفوا به . سلوا انفسكم كم عربياً قرأ هذا الكتاب او ذاك من كتب الجاحظ !سلو انفسكم كم عربياً قرأ كتاب البخلاء .. او كتاب التربيع والتدوير ؟ وما شئتم من الكتب القديمة التي نقرأها فنجد فيها المتعة ، والتي يقرأها بعض المستشرقين فيجدون فيها المتعة .. سلوا انفسكم كم عربياً قرأ هذه الكتب ؟ .. قرأها العلماء واشباه العلماء وطلاب العلوم العالية ، فاما ملايين العرب فلا يعرفون عنها شيئاً واعرف قوماً اذا ذكرت لهم هذه الاشياء هزوا رؤوسهم ورفعوا اكتافهم ، واستهزأوا من ذاكريها .. وقرأت ذات يوم في الصحف من ينكر على دار الكتب نشاطها في مصر ، وقال ان هذه الدار لم تطبع الا كتاباً واحداً وهو كتاب « الفاضل » لابي يزيد المبرد ، ينشر هذا ايها السادة في صحيفة يومية ، كتاب الفاضل لابي يزيد المبرد ، هذا الكاتب ينشر والصحيفة التي نشرت له لا تعرف ان المبرد يسمى « ابا العباس محمد بن يزيد » وانما يجعله ابا يزيد المبرد والكتاب لا يسمى –الكامل بل يسمى – الفاضل – وعلى هذا النحو .. وبالطبع فوق كل ذى علم عليم .. وقد يكون للمبرد كتاب يسمى الفاضل ولكني اعترف انني لم اقرأه ولم اسمع به قبل اليوم

ليس من شك في انيإذ اتحدث في هذا كله ، اتحدث الى فريقين من الناس ، اتحدث قبل كل شيء الى العلماء الذين يستطيعون الخير ولكنهم لا يقدمون عليه ، ثم اتحدث الى الشباب المتعلمين الذين من حقهم ان يطالبوا العلماء ان ييسروا لهم لغتهم ، وبأن لا يباعدوا بينهم وبين عروبتهم. ولا شك ولا يجد الشك الى نفسي سبيلا بان الحكومات العربية اذا قال لها العلماء هذا هو النحو الجديد الميسر الذي يلائم عقول الشباب في هذا العصر ولا يمس جوهر اللغة العربية من قريب ولا من بعيد ولا يغير من طبيعة اللغة العربية شيئاً وان يتقنوها وان يتكلموها وان يقرأوها وان يفهموها ، لا شك مطلقاً بان الحكومات عندما يقدم اليها العلماء هذه الكتابة اليسيرة لن تتيح للشباب ان يقرأوا قراءة صحيحة ويفهموا فهماً صحيحاً ويجعلوا اللغة جزءاً من قلوبهم ويجعلوها جزءاً من حياتهم اليومية لا لغة متكلفة يتكلفونها ان استطاعوا ان يتكلفوها في اوقات الحاجة ، اذا قدم العلماء هذا كله الى الحكومات فانا مطمئن كل الاطمئنان الى ان جميع الحكومات العربية لن تتردد في اقرار هذا النحو وفي اقرار هذه الكتابة وفي اشاعة هذا النحو في المدارس وفي اشاعة هذه الكتابة ايضاً .

ولقد رأيت مرة كتاباً من كتب المطالعة في المدارس الابتدائية عندنا في مصر طغت عليه (البداغوجيه فويل لنا من البداغوجية) تزعمت ان اللغة العامية قد تكون ايسر لافهام الصبية ، فادخلت بعض الجمل وبعض الالفاظ العامية في هذا الكتاب فلما تحدثت في ذلك الى وزير التربية والتعليم لم يتردد في ان يعدني بالنظر في تلك الثورة. فقدموا ايها السادة العلماء ، والحديث هنا موجه الى مجامعنا الثلاثة التي تأتمر الآن في هذه العاصمة العربية ، قدموا ايها السادة العلماء الى الحكومات كتابات ميسرة ونحواً ميسراً وقربوا لغتكم من الشعوب وثقوا بانكم ان فعلتم فستبلون بلاء خيراً من البلاء العظيم الخطير الذي ابلاه نحاة البصرة والكوفة وبغداد في العهد القديم .

طه حسين